

كتاب ابن الرومي

نقد وتحقيق بقلم الاديب الكبير

السيد مصطفى صادق الرافعي



(السيد مصطفى صادق الرافعي)

السيد مصطفى صادق الرافعي ، في المقدمة من رجال الادب القديم ، وهو بحق حامل لوائه والدائد عن حياته .

واذا كان قد بدأ كتابته في (المعرفة) بنقد كتاب الاستاذ العقاد ، فليس ذلك عن غرض كما قد يتوهم البعض ، أو عن تأمر - بين الاستاذ الرافعي والمحرر - كما يتوهم آخرون ، ولكنه نقد برىء ، قصد به الى اظهار الحق ، بعيداً عن الغرض .

وبحسبنا أن نصارح قراءنا بأن ثمة خلافاً ... كان بيننا وبين الاستاذ الرافعي ، من ستة أشهر تقريباً ولكنه زال والله الحمد ، على أمر تشريفه لنا بزيارته ، وتفضله بهذا النقد الطريف .

ويسر (المعرفة) أن نصارح الاستاذ العقاد ، بأنها على استعداد تام لنشر ملاحظاته ، ان كانت له ملاحظات على هذا النقد .

المحرر

وضع الاديب عباس محمود العقاد كتابه هذا في الكشف عن حياة ابن الرومي واستخراجها من شعره ، وفي الكلام على أدبه ونهجه ، وفي بيان مترلته ومحلّه ، ثم خصائصه ومزاياه ، وغفلاته وسقطاته ، فكتب في كل ذلك ثلاثمائة وثلاثين صفحة . دخلها كثير من شعر ابن الرومي يستدل به ، أو يستنبط منه ، أو يخرج عليه ، ثم ختم كتابه بستين صفحة اختارها من ديوان الشاعر وقال « إنها تتم المعرفة بشاعريته من جميع نواحيها »

وقد وقع الى هذا الكتاب فقرأته ، فاشككت أن المؤلف قد كان يتوجه ويقارب الغاية لو أنه عكس النوضع في كتابه ، فاختار من شعر ابن الرومي ثلاثمائة وثلاثين صفحة وكتب عنه الباقي ، اذ ليس الاعتبار في مثل هذا البحث بالورق والحد فيهِ ، ولا بالجرى على عادة الاستعمال في الكتابة الصحافية ، التي بلغت أن تجرى في أصابع كتابها مجرى الكلام في ألسنتهم . . . بل هو التاريخ لا يجوز أن يخلق ابتداءً ، ولا أن يحدث على غير ما حدث ،

فلا تتمجل له الفروض ، ولا تلمس فيه غير حقائقه ، وليس للكاتب فيه إلا الحادثة على نصها ، ثم إقامة الحجة على وجهها ، ثم شرح العلة على مقدارها ، ثم ما بين ذلك من استخراج الاسباب التي تتوافق بها الحوادث وتجتمع وتتركب ، ثم ماحول ذلك مما لا بد أن تسترسل فيه نفس الكاتب من فن الملاحظة أو ملاحظة الفن ، ليثبت أن التاريخ قد اتصل منه بالحياة مرة أخرى . ولو أن متعصباً على ابن الرومي منحرفاً عنه ، قد أفرط في تهجينه واستهلكه بالنقد ، ونعى كل سيئاته ، ونقض كل حسناته ، لما كان بعمله ذاك إلا في الجانب الآخر من صنيع العقاد الذي غلا في ابن الرومي أشد الغلو ، وتعسف له المعاني ، وجاوز به التقدير ، وأخذ حقيقته ، وأبرزه خرافة ، فهو من هذه الناحية في حكم التاريخ كذلك المتعصب ، كلاهما لا يكتب على مذهبه الا وقد وضع عن نفسه أنه ليس في الناس من يعتبر عليه بنقد أو يتعقبه بتصحيح ، وكلاهما لا يعضى إلا على ماحول الغرض ، ولا يقصد الا قصد التسوية لما في نفسه ، وكلاهما بتاريخه وراء الحدود التاريخية . . .

يقول الاديب عبد الرحمن صدقي في ما كتب في المقتطف عن العقاد وكتابه : « إن كل لفظ في عبارته له قيمة الارقام الحسابية الدالة على العدد . . . وإنها لمعجزة أن تكون هذه الدقة الحسابية مفرغة في قالب من جمال الفن السامى » . ونقول نحن : إن الذى تقع له هذه المعجزة فيما يكتبه حرى أن لا يخطئ فيما ينقله ، وإن من لا يوثق بصحة تمييزه لما يقرأ ، خليف أن يكون بعيداً عن معجزات البيان بل عن البيان نفسه .

لقد صحح العقاد غلطات كتابه واستدركها في آخره ، وأحصى منها ما لا خطر له كتصحيح فتح الربح بنفح الربح ، والفرد بالقرء ، فما وقع في نقله مما لم يصححه قائماً هو غلط في الفهم وإنما هو شيء لا يجرى في (الدقة الحسابية) ولا يدل عليها بل على تقيضها ، فانظر أين الدقة في هذا البيت الذى ورد في صفحة ٢١ :

كم رضيع هناك قد فطموه بشبا السيف قبل حين الفطام

وإنما هي « بشبا السيف » . وفي صفحة ٢٩ نقلاً عن معجم الادباء « يلائم الخمار ويفيق الشهوة » وصوابها « ويفيق الشهوة » . وفي هذه الصفحة عينها « لأمر ما قد قت » وإنما هي قدمت . وفي صفحة ٤٠ عن معجم الادباء « وأمرت بنقله إلى آخر نار الله وسعيره ، والصواب الى حر نار الله . وفي صفحة ٦٧ في خادم اسمه إقبال نقلاً عن كتاب العمدة « ومنكوس اسمه لا بقا » وهي معكوس اسمه . وقد يظن القارئ أن هذه غلطات مطبعية ولكنه يصيبها كذلك في الكتب التي نقل عنها العقاد ، فهي غلطات لم تقع منه ولكن وقع هو فيها . ومنها في صفحة ٧٢ نقلاً عن أمالى المرتضى « فدخل يوماً (الوزير) عبيد الله الى أبى الحسن (ابنه القاسم الذى سمى ابن الرومي) وابن الرومي عنده ، فاستشده من شعره .

فأثدده وخطبه ، فرآه مضطرب العقل « جاهلا » ، وكرر هذا النقل في صفحة ٢٥٦ وهو كذلك في الامالى . قلنا : فإذا كان ابن الرومي جاهلا ولا يراه كذلك الا الوزير الكاتب البليغ عبيد الله بن سليمان ، فقيم كتاب العقاد .. ؟ إنما صواب العبارة : فرآه مضطرب العقل جاهلا . وقد وصفوا ابن الرومي بأنه كان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظرأ يدل على تغير حال ، وذلك هو الذهول . وفي صفحة ١١٢ يصف ابن الرومي زبغ بصره :

و بورك طرفي فالشخوص حياهه قرائن من أدنى مدى وهى فرد

يريد أنه يرى الشيء اثنين ، وكرر العقاد نقل هذا البيت في صفحة ١٣٠ وفسر هذه البركة...

واستدل بها على أن ابن الرومي يتهم حتى بنفسه ، مع أن القصيدة التي منها البيت تحسر وتوجع ، ولا نحسب معنوها فضلا عن رجل كان الرومي يعد مثل هذه العلة بركة في نظره ، وإنما هي (وشورك طرفي) أى كأن في عينه ناظرين للشخص الواحد ، وهذا هو المعنى الشعرى الدقيق لا ذلك المعنى الفاسد الذى يقول فيه العقاد : إنه « يحمد الله على زيفان بصره » ... ونعوذ بالله من هذا الذوق الفاسد .

وفي صفحة ١١٨ يقول العقاد وهو يصف ابن الرومي بما استدل عليه من شعره . . . إنه كان يعاف المشمش لأنه دواء لاغذاء .

إذا مارأيت الدهر بستان مشمش فأيقن بحق إنه لطبيب

وقد أيقنا بحق . . . أن العقاد لم يفهم المعنى ، فكيف يعاف الشاعر السقيم المعتل فا كفة تكون دواء للجسم ؟ أما الذى يريده ابن الرومي فهو أن المشمش داء (لادواء) إذ هو ينتهى بمن يأكله الى الطبيب ، وهو معنى أخذه مما كان يقول به الاطباء من أن هذه الفاكهة تجلب الحمى ، فهكذا يستدل مؤلفنا بشعر ابن الرومي على حياته وصفاته . . . ومثل هذا كثير فى الكتاب أحصيناه كله واجترأنا بهذا القدر منه تقاديا من الاطالة وهو حسبك فى الدلالة على تمييز العقاد وفهمه وبصره بالكلام .

ونعرض الآن لموضوع الكتاب فهو كما قلنا يجرى على عادة الاستعمال فى الكتابة الصحافية ، حتى ما من ورقة فيه إلا وانت تستطيع أن تنقض منها على المؤلف أو ترد عليه إذ كل ما فى الكتاب استرسال ، وإغراق وترخص ، كأنه يأخذ الكلام عسفاً وجرفاً . حتى خرج بابن الرومي عن مقداره ومقدار عصره كأن الرجل كان فى زمنه غفلا غير معروف ، فلا يفهمه أحدا ولا يتعاطى شأوه إنسان ، وكأن شعره الذى وضعه من ألف سنة بقى ألف سنة لا يجد من يفصح عما كان فى نفس واضعه . ثم ما الذى كان فى نفس واضعه يومئذ وأخفاه ابن الرومي عن قومه وعصره وعن نفسه أيضا . . . ؟

كانت هناك أصول ومعان لا تكشف إلا بعبارات مترجمة من كتب الأدب الأوربي في هذا العصر « كعبادة الحياة ، ومنح الطبيعة الحياة من عنده أو من عند الخرافات . . . والاصغاء الى سر الحياة الكامنة في الأرض ، والعلم أن أنسه بالطبيعة مستمد مما يفيضه هو عليها من دلائل الحياة ، والخلع من شبابه عليها والخلع من شبابه عليه والمزج بينهما مزجاً لا نخاله يكون إلا في مهجة واحدة وإعطاء الحياة وإعطاء الشخص وهنوات (كذا) النفوس عنده شخوص يحاطبها وتحاطبها ، وعالم الطفولة الخالدة لم تردده السنون إلا إمعاناً في الطفولة واغراقاً في اللعب وشوقاً الى الحلوى ورهبة من العضا . . . »

نظن أنه لا ينفع العقاد أن تقره الدنيا كلها على تعقيد حياة ابن الرومي هذا التعقيد إذا كان لا ينكره عليه إلا ابن الرومي نفسه وأهل عصره . على أن كل كاتب يستطيع أن يتناول أسخف الشعر وأرذل وأبرده من أي عصر شاء ، ثم يحمل عليه كل ما جاء في كتاب العقاد عن ابن الرومي من مثل هذه العبارات ، في يوطئ له منها ويشرح بها من نحو :

قال محمد : هو ابن مالك أحمد ربى الله خير مالك

فانظر كيف بر الناظم أباه ؟ وهذا فيه دليل التقوى والورع كأنه يكافئه على إياه بتخليد اسمه في أول كلماته ، ثم ذكره اسمه دليل على عبادته الحياة ورغبته بعد الموت أن لا يموت اسمه ، كأنه أعطى الحياة الآتية من بعد شخصاً ليس فيها ، ولكن لا بد أن يكون فيها ولا بد أن يبقى فيها ما بقيت العربية . وتأمل كيف جعل نفسه (يقول) وهو ميت لا يقول شيئاً ، فهذا دليل على أن لهنوات النفوس عنده شخوصاً كما أنه دليل على طفولته الخالدة ، إذ أظهر صفات الطفل أن بلغت النظر اليه . الخ الخ

أفيسمى مثل هذا الكلام الصحافي بحثاً في البيان والأدب والاستدلال على الحياة بالشعر ؟

تكلم المؤلف في المقدمة عما سماه الطبيعة الفنية ، ونقل قول ابن خلكان في وصف ابن الرومي اذ يقول « هو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب ، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكائدها ، ويرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره . » قال العقاد : وهذا وصف صادق كله ولكنه ليس بكل الوصف . فهو تعريف ناقص والناقص فيه هو المهم إذ هو هو المزية الكبرى في الشاعر ، وهو هو الطبيعة الفنية التي تجعل الفن جزءاً لا يتفصل من الحياة . ثم انسحب على هذا المعنى وخلط فيه على طريقته المعروفة التي تدل القارئ المتبين أن الكاتب يشعر دائماً بأن رأيه لضعفه أو شدوده موضع

المنازعة والمحااجة ، فهو يرقعه من كل فتوقه ، ويضطره ذلك أحياناً أن يأخذ رقع الثوب من الثوب نفسه ، فإذا ناحية مرقوعة بناحية ممزقة...

ليس ابن الرومي لغزاً بشرياً ، فإنه كان شاعراً « صاحب توليد غريب ومعان نادرة ، ولا يترك المعنى ، حتى يستوفيه إلى آخره » ، فهل هذا إلا من أنه « صاحب طبيعة فنية وإحساس حي وأن ذخيرة نفسه تتطلب التعبير للافتنان فيه ؟ وهل كان واجباً على أدبائنا وعلمائنا المتقدمين أن يبقوا أحياء على الأرض ألف سنة حتى يقرأوا الكتب الأدبية الأوربية الحديثة ، ويصفوا ابن الرومي بألفاظها ليطعموا التعريف باللغة الأدبية المترجمة التي لا يقبل في مصر غيرها ؟

إنما خلط العقاد ذلك الخلط لأنه لم يفهم معنى « التوليد » ولا المعاني النادرة وظن هذا كله صناعة وزخرفاً و « أدوات للتعبير » حتى قال : فإذا لم يكن عند الشاعر ما يعبر عنه ، فكل معانيه وتوليداته ونوادره لغو لا حاجة بنا إليه ، وإذا ما كان عنده ما يعبر عنه واستطاع التعبير بغير توليد ولا إغراب ولا استغراق ، فقد أدى رسالته .

ونحن نقول : إنه ليس على وجه الأرض عبقرى ذو طبيعة فنية إلا وأساس عبقريته « التوليد » وحده ، لأن هذا التوليد هو الاحساس الحي بالمعاني ، وهو القوة التي يتجول بها الكون في نفس من الآلة نفس الرقيقة إلى التعبير ، وهو أساس الإلهام والدرجة الممكنة من الوحي لغير الأنبياء ، وبه يحس العبقرى أن الكون في ذاته وأنه متزاي الحدود مع الأشياء ، وأن الحياة مضاعفة فيه بالآلام وأفرحها ، وأنه منصوب لتفسيرها مهياً لبلاغ رسالة من رسائلها .

فليس التوليد أخذ معنى من غيره فإن هذا بعض عمله ، أما هو فهو الملكة المتأتية من أسباب كثيرة : أولها الطبيعة الفنية التي لا يخص الله بها إلا أهل هذه الملكة وحدهم . وفي الجملة فالتوليد هو اسم آخر للجهاز العصبي الدقيق المرفه المستحکم ، إذ لا يستطيعه إلا من وهب هذه الموهبة أو من أصيب بها . فلو فقد ابن الرومي ملكة التوليد لكان نظاماً ليس غير . والعجيب أن العقاد يقول : فقد تحذف منه توليداته ومعانيه ، ولا تحذف منه عناصر الشاعرية والطبيعة الفنية . . .

أحذف ! ويحك ، توليدات ابن الرومي ومعانيه ، فكيف تعرف أنه شاعر ؟ وكيف يبلغك في التاريخ وما هي عناصر الشاعرية التي تدلك عليه ؟ وإذا لم يكن إلا رديئه والساقط من كلامه والسخيف من معانيه فكيف بهذا يكون عندك « الشاعر من فرعه إلى قدمه » وهو قد حرم طبيعة الشعر وملكة الاستجابة للاحساس التي سموها بعملها أي التوليد ؟

وتكلم المؤلف عن عصر ابن الرومي - وعصر ابن الرومي هو عصر كل شاعر كان فيه - فلو ترجمنا شاعر من أهل هذا العصر ، لوجب أن يتكرر هذا الفصل مائة مرة . على أن عصر

الشاعر، ليس هو الخلفاء والأمرء والحكام والنظام والاقطاع والحالة السياسية والحالة الدينية والحالة الأخلاقية، وهذا الحشو الثقيل الممل، بل هو ما اتصل بالعصر وحياته من الشاعر نفسه. وهبك تكتب عن رجل في مستشفى المجاذيب فما صلة هذا الرجل بالخلفاء والأمرء والسياسة والدين الخ الخ؟ إن عصر مجنون في مستشفى المجاذيب هو مستشفى المجاذيب لا غير.. وانتقل المؤلف لأخبار ابن الرومي فظن عند نفسه أنه استقصاها، على حين قد فاتته أشياء كانت أمس بموضوعه منها: هذا الخبر الذي يدل على أن الشاعر كان بدون آراءه، فقد نقلوا أنهم عثروا في بعض «تسطيراته» على كلام اعتذر به عن أبي تمام فقال: إنه يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ، حتى لو تم له المعنى بلفظة بنطية لأتى بها... وهذه هي طريقة ابن الرومي بعينها، فالخبر نص في أنه يتبع أبا تمام، كما كان يتبع جريرا في طريقته في الهجاء من بنائه على السخر وإغراقه في ذلك، والاضحالك به، وهذا أيضا لم يذكره العقاد. ولو أطل أبو تمام الشعر إطالة ابن الرومي لما أفلح ولو خفف ابن الرومي تخفيف أبي تمام لما أخفق. فكل ما خلط فيه العقاد من أسباب خيبة ابن الرومي لا يتوجه منه شيء وإثما السبب في تلك الخيبة غوصه على المعاني وطول قصائده، فهما مصبيتان إذا أريد بهما التكسب، وهما السر في ضعف صناعته الشعرية، وأنه كان يسفسف كثيرا ويضعف وذلك بعض ما تخلف به.

مصطفى صادق الرافعي

اطلبوا

المجلد الأول، أو الأعداد التي تنقصكم، من إدارة المجلة مباشرة.

دار الترقى للطبع والنشر بالقاهرة

اطلبوا منها الكتب والروايات الآتية: —

رواية إبراهيم الكاتب — للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني.

كل شيء هادئ في الميدان الغربي — الرواية الألمانية الشهيرة تعريب جريدة الوادي.

التمردون — مجموعة قصص مصرية: للأستاذ محمود كامل المحامي.

صندوق الدنيا — للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني.